النّزعة الانتقادية في رحلة ابن جبير

محمد نايف العمايرة وشفيق محمد الرقب*

ملخص

رصد ابن جبير في رحلته صوراً متعددة من مظاهر العمران الاجتماعي في البلدان الّتي زارها، واسترعى انتباهه بعض المشاهد الغريبة فيها، ولا سيما تلك الّتي تخالف الشريعة الإسلامية، أو الّتي لم يكن يألفها في مغرب العالم الإسلامي، فانتقدها. ويهدف هذا البحث إلى دراسة النزعة النقدية في هذه الرحلة، ومدى ارتباطها بشخصية صاحبها، والمظاهر الّتي تمثّلت بها، وسيكون ذلك ضمن إطارين كبيرين هما: النقد السياسي والإداري، والنقد الاجتماعي.

الكلمات الدالة: ابن جبير، النزعة النقدية، رحلة.

المقدمـــة

قدم ابن جبير في رحلته وصفاً دقيقاً للعمران الاجتماعي في البلدان الّتي زارها، وقد نوه القدماء بهذه الرحلة، فوصفها ابن الخطيب بـ "أنها نسيجة وحدها"[(1)]، ذكر فيها من غرائب المشاهد، وعجائب البلدان، وبدائع الصنائع، فطارت كلّ مطار، وأشار المقري إلى تداول النّاس لها في عصره، فقال: "له رحلة مشهورة بأيدي النّاس"[(2)]. وعني الدارسون المحدثون بها، وحلّلوا قيمتها الجغرافية والتّاريخية والاجتماعية والاقتصادية[(3)]، ووصفوها بأنّها ذروة ما بلغه أدب الرحلة في التراث العربي[(4)] .

وقد كانت شخصيةُ ابن جبير حاضرة في رحلته حضوراً قويا، بل إن الرحلة استمدت وحدتها وتفردها من شخصية كاتبها الّتي أضفت عليها ظلالها من بدايتها حتّى نهايتها؛ فهي تشفّ عن رجل دقيق الملاحظة يهتم بالتفاصيل، ويحدق في المشهد الذي يصفه، ويستقصي جوانبه، ويثبت الوقائع الّتي يشاهدها دون أن يخلّ بها، ويعنى بالتوثيق اليومي لأحداث رحلته، ويحدد الأماكن التي يزورها تحديداً دقيقاً، ويقارن بينها وبين غيرها.

وتصور الرحلة رجلاً عميق التقوى، قوي الإيمان، صحيح العقيدة، "يسرع في الالتجاء إلى الله في حال الرضا والغضب، والإعجاب والاستنكار، والاطمئنان والفزع"[(5)]، ويهتم بوصف الرسوم الدينية، والأماكن الإسلامية في كلّ بلدة يحلّ بها: المساجد والمزارات والمشاهد والأضرحة ومجالس الوعظ وحلقات الذكْر، ويصف ذلك وصفاً ممتعاً مؤنساً يثير "سواكن النفس إلى تلك المعالم المكرمة، والمشاهد العظيمة"[(6)] على حد قول ابن الخطيب.

وكانت الأندلس في طبيعتها وثقافتها وفكرها وذوقها وأنماط السلوك فيها النموذج الّذي سرعان ما يقفز إلى ذهن ابن جبير عندما يلم ببعض الأماكن أو يشاهد بعض المواقف.

فعندما نزل الإسكندرية، وهو ما يزال في بداية رحلته، رقّت نفسه بالحنين إلى وطنه، وسأل اللهَ -عز وجلّ- تعجيلَ الإياب للوطن[(7)]. وعندما عاين ظلم عمال الدواوين في مصر وتعديهم على النّاس دعا الله أن يسلّط عليهم سيوف دولة الموحدين "أنصار الدين والذابين عن حرم الله عز وجلّ والغائرين على محارمه"[(8)]. ويذكّره مرأى بعض الأماكن في المشرق ببعض الأماكن في بلاده؛ فعندما نزل قرية (تلّ العقاب) في الجزيرة الفراتية علّق على ذلك قائلاً: "ذكّرتنا هذه القرية بقرى الأندلس حسناً ونضارة."[(9)]، وعندما أطلّ على مدينة حمص من بعد وقع في نفسه للحين خيال مدينة إشبيلية[(10)]، أما صقلّية فهي "ابنة الأندلس في سعة العمارة وكثرة الخصب والرفاهة"[(11)]. وفي هذا السياق يمكن أن نفهم اهتمامه بشؤون المغاربة والأندلسيين في مشرق العالم الإسلامي، وثنائه على أخلاقهم، ومدحه لأمانتهم.[(12)]

وتُقدم الرحلة ابن جبير رجلاً حاد الإحساس، سريع التأثّر والانفعال، فهو سرعان ما يستثار-سلباً أو إيجاباً- عندما يلاحظ أموراً يعتقد أنّها غير صحيحة أو مخالفة لما لم يألفه ذوقه الأندلسي، وقد انعكس ذلك على أساليب التعبير في رحلته، فهو يكثر من استخدام (اسم التّفضيل) في الوصف وفي إصدار الأحكام، من مثل: "ومن أعظم العجائب"[(13)]،

---

* قسم التاريخ؛ وقسم اللغة العربية وآدابها، جامعة مؤتة، الكرك، الأردن. تاريخ استلام البحث 2009/3/24، وتاريخ قبوله 2010/1/11.

"ومن أعجب ما في وصفه"[14]، "فما أظن في الوجود كلّه مصنعاً أحفل منه"[15]. وقد تتابع أسماء التّفضيل في سياق واحد حاملة شحنة قوية من الانفعال، كما في قوله: "حتّى أنّا ما شاهدنا بلداً أوسع منه ولا أعلى مبنى ولا أعتق ولا أحفل منه، وأسواقه في نهاية الاحتفال أيضاً"[16] .

ولعلّ العناصر السابقة: دقّة الملاحظة، وعمق التقوى، والذّوق الأندلسي، وحدة الإحساس تضافرت جميعاً على بروز النّزعة الانتقادية على نحو واضح في رحلة ابن جبير؛ فهو لا يفتأ يستقصي ما يشاهده ويحمل بشدة على ما يعتقد أنّه بِدع ومعتقدات خاطئة، وينكر بقوة ما يرى من أمور تخالف دستور الشريعة في سياسة النّاس وتدبير شؤونهم، وينتقد أنماط السلوك التي يرى أنّها لا تليق بالإنسان المسلم وتُطامِن من قدره، ويستغرب العادات والتقاليد التي لم يكن يألفها في وطنه الأندلس. واتّخذ هذا النّقد صوراً شتّى من التعبير، أقلّها إظهار مشاعر الاستغراب والدهشة، وقد يمضي مع طبيعته الحادة فيعبرعن انفعالات السخط والغضب، وقد يصعد لهجة الإنكار حتّى تصل إلى درجة الهجاء والذم، وقد يخالط ذلك قدر من التهكّم والسخرية؛ لذا فإن هذه الدراسة ستتناول النّزعة النّقدية في رحلة ابن جبير، وسيكون ذلك ضمن إطارين كبيرين، هما:

أ- النّقد السياسي والإداري.

ب- النّقد الاجتماعي.

أولا- النّقد السياسي والإداري

الفوضى المذهبية والتفكّك السياسي:

يستشفّ من الرحلة أنّه كان لدى ابن جبير نموذجان سياسيان مشرقان في عصره: صلاح الدين الأيوبي في مصر والشّام، والدولة الموحدية في المغرب والأندلس. وقد أثنى على الملك النّاصر صلاح الدين في مواضع كثيرة من رحلته، ووصف بعض أعماله وإنجازاته، وغالباً ما كان يستذكره في سياق المقارنة بينه وبين حكّام عصره الذين كانوا يظلمون الرعية، ويستجيزون كيدها. وتحدث عن دولة الموحدين في موضع واحد من رحلته عندما قارن بينها وبين حكّام المشرق عامة، وذلك إذ يقول: "ولْيتحقّق المتحقّقُ، ويعتقد الصحيح الاعتقاد أنّه لا إسلام إلاّ ببلاد المغرب، لأنّهم على جادة واضحة لا بنيات لها"[17]، أما حكّام البلاد المشرقية فهم "فرق ضالّة وشيع"، و"يركبون طرائق من الظلم لم يسمع بمثلها، اللهم إلاّ هذا السلطان صلاح الدين"[18].

وتحدث عن تَشوفِ النّاس في البلاد المشرقية إلى الموحدين لتخليصهم من ظلم الحكّام وعسفهم، وكيف أنّهم ينتظرون "الكائنةَ السعيدة من تملّك الموحدين لهذه البلاد، فهم يستطلعون بها صبحاً جلياً، ويقطعون بصحتها، ويرتقبونها ارتقاب الساعة الّتي لا يمتَرون في إنجاز وعدها"[19] . وقد شاهد ابن جبير نفسه ذلك في مصر والديار الحجازية والشّام، ونُمي إليه أن بعض فقهاء هذه البلاد وزعمائها قد حبر خُطباً أعدها للقيام بين يدي الأمير الموحدي.[20].

وتحدث ابن جبير بأسى بالغ عن الفوضى المذهبية التي عمت الديار الحجازية في القرن السادس الهجري؛ فقد غدا النّاس فرقاً وشيعاً لا دين لهم، وتفرقوا مذاهب شتّى، وانعكس ذلك على شعائر العبادة المفروضة، وعلى العلاقات بين هذه الفئات؛ فقد كان لكلّ مذهب من المذاهب الأربعة إمام يصلّي بمن هم على مذهبه، واستنكر ابن جبير ذلك، ومما عمق استكاره وجود إمام خامس على مذهب الزيدية. وانتقد بعض أفعال هؤلاء الزيدية التي تخالف أهل السنّة، فهم يؤذّنون بـ"حي على خير العمل"، ولا يصلّون الجمعة مع المصلّين، وإنّما يصلّون الظهر أربعاً، ويصلون المغرب بعد أن يفرغ الأئمة من صلاتها، ويتبرؤون من أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما[21] .

أما في المدينة المنورة فقد كانت الغلبة للمذهب الشيعي على غيره من المذاهب، وقد اضطهد أتباعه أهلَ السنّة حتّى ذهب بعض الدارسين إلى أنّه لم يكن بالمستطاع الجهر بقراءة كتب السنّة آنذاك، وقد لاحظ ابن جبير ذلك، وأشار إلى تصدر أرباب التشيع للإمامة والخطابة، ووصفهم بأنّهم "على مذهب غير مرضي"[22].

وانتقد ابن جبير التفكّك السياسي الذي عم منطقة الجزيرة الفراتية، حتّى صار على رأس كلّ مدينة منها حاكم مستبد، وشبههم بملوك الطوائف في الأندلس، وسخر من ألقاب التفخيم الّتي يطلقونها على أنفسهم، وهم ليسوا أهلاً لها؛ "فكلّهم قد تحلّى بحلية تُنسب للدين، فلا تسمع إلاّ ألقاباً هائلة وصفات لدى التّحصيل غير طائلة، قد تساوى فيها السوقةُ والملوك، واشترك فيها الغني والصعلوك... إلاّ صلاحَ الدين فهذا اسم وافق مسماه، ولفظ طابق معناه، وما سوى ذلك في سواه فزعازع ريح، وشهاداتُ التّجريح...

ألقاب مملكةٍ في غير موضعها

كالهر يحكي انتفاخاً صولةَ الأسدِ"[23]

وانتقد ابن جبير عدداً من حكّام عصره في البلاد الّتي زارها، ونص على بعضهم، ومن هؤلاء (الأمير مكثر بن عيسى) صاحب مكّة، وهو من ذرية الحسين بن علي "لكنّه ممن يعمل غير صالح"[24] ، فقد دأب على ترويع الحجاج

بفرض المكوس الباهظة عليهم، فلما علم صلاح الدين بذلك جعل له عوضاً عنه مالاً وطعاماً أمر بتوصيلهما إليه، فإذا تأخّر عنه أخذ المكوس منهم، لأنّه "لا يريد أن يترك ماله عند الحجاج".[25] على حد زعمه، ويستغرب ابن جبير هذه المقولة، فـ"كأن حرم الله ميراثٌ بيده"[26] ، وهنا يستشيط غضباً، فيرى أن "أحقّ بلاد الله بأن يطهرها السيفُ، ويغسل أرجاسها وأدناسها بالدماء المسفوكة في سبيل الله؛ هذه البلاد الحجازية، لِما هم عليه من حلّ عرا الإسلام، واستحلال أموال الحاج ودمائهم"[27] .

ولا يفتأ ابن جبير يتحدث في رحلته عن جشع هذا الأمير؛ فقد منع النفقة عن البيت الحرام، فلا يجد المتأجر من ذوي اليسار إلى ذلك سبيلا إلاّ ببذل "حظّ وافر من النفقة لأمير البلاد، ربما يوازي المنفوق فيه، فتتضاعف المؤونة على صاحبه"[28] . كذلك فقد عزل أمير بني شَيبة عن سدنة الحرم، وأمر بانتهاب منزله لهنات نُسبت إليه، بيد أنّه أعاده بعد مدة وجيزة بعد أن بذل له قدراً من المال، ويعلّق ابن جبير على ذلك قائلاً: "وتحقّقنا أن إظهار القبض عليه لم يكن غَيرةً ولا أنفةً على حرمات الله المنتهكة على يديه...والحالُ يشبه بعضها بعضاً... وإلى الله المشتكى"[29] . ولعلّ هذا الجشع في جمع المال كان السبب وراء أمر الخليفة العباسي أمير الحاج العراقي بعزل الأمير مكثر، وإقامة أخيه مكانه، والواقعة التي حدثت بمكّة في إثر ذلك[30] .

وقد أحاط هذا الأمير نفسه بأجواء من الفخامة والضخامة ترددت أصداؤها في الرحلة على سبيل الإنكار لها، ومع ذلك فقد كان يحسب حساباً كبيراً للملك النّاصر صلاح الدين خاصة والبيت الأيوبي عامة، وقد سخِر ابن جبير منه عندما صور خوفه من الأمير سيف الإسلام طغتكين بن أيوب الّذي زار مكّة، وصور الرعب الّذي دب في قلبه؛ فقد خرج إليه "متلقّياً ومسلّماً، وفي الحقيقة مستسلماً"[31] ، وتبدو السخرية أوضح عندما صور فرح هذا الأمير بالهدية الّتي أهداها إليه سيف الإسلام، وخروجه إلى الناس في موكب ضخم لاستعراض الخلعة الّتي خلعها عليه بعد أن كان أوجس منه خيفة.[32]

ومن الحكّام الّذين نقدهم ابن جبير الأمير عثمان صاحب عدن الّذي خرج فاراً منها لما علم مقدم الأمير سيف الإسلام طغتكين إليها، فقد ركب البحر في سفينة "مشحونة بأموال عظيمة، وأموال لا تُحصى كثرة، لأنّه طال مقامه في تلك الولاية، واتّسع كسبه"[33] ، وينتقد ابن جبير سيرة هذا الأمير مع التجار، ويصف الأموال الضخمة الّتي احتازها منهم، فاكتسب بذلك "سحتاً عظيماً، وحاز كنوزاً قارونية"[34].

الفساد الإداري والكسب غير المشروع

وجه ابن جبير نقداً لاذعاً لعمال الدواوين في مصر[35]، فقد صور على نحو تفصيلي المعاملة القاسية التي عومل بها الحجاج الذين نزلوا في ميناء الإسكندرية، حيث صعد موظّفو الديوان إلى المركب الّذي كان يستقلّه، وأحصوا من كان فيه من المسلمين واحداً واحداً، وكتبوا أسماءهم وصفاتهم وأسماء بلادهم، واستقْصوا ما كان يحمله كل واحد منهم من سِلَعٍ أو دراهم، وفرضوا عليهم أداء زكاة ذلك، سواء أحال عليه الحول أم لم يحلْ. وإمعاناً في الاستقصاء فقد أنزلوا أحمد بن حسان، رفيقَ ابن جبير في رحلته، و"طيف به مرقّباً على السلطان أولاً، ثم على القاضي، ثم على أهل الديوان، ثم على جماعة من حاشية السلطان، وفي كلّ ذلك يستفهم ويقيِّد قوله"[36].

ولم يقِفْ أمر هؤلاء العمال عند حدود التقصي في الاستخبار، بل أمروا الحاج بتنزيل أمتعتهم من المركب على ساحل البحر، وحمل جميع ما أنزلوه إلى رئيسهم، ثم استُدعوا واحداً واحداً، وفتّشوا أمتعتهم تفتيشاً دقيقاً، بل فُتّشَ كلّ واحد منهم، "وأُدخِلت الأيدي في أوساطهم بحثاً عما أن يكون فيها، ثم استُحلفوا بعد ذلك هل عندهم غير ما وجد لهم أم لا"[37] ، وتصور الرحلةُ الاضطراب الشديد الّذي أصاب المسافرين: حجاجاً وغير حجاج، واختلاط أمتعتهم، وضياع بعضها بسبب تكاثر الزحام، وتصف ذلك بأنّه من سوء الأحدوثة، "وموقفٌ من الخزي والذلّ عظيم""[38] .

وتحدث ابن جبير عن مواقف الخزي والمهانة الّتي يتعرض لها الحجاج على طول الطريق الّتي سلكوها في صعيد مصر، وكيف أنّهم كانوا يلاقون من هؤلاء العمال الظّلَمة، كما يصفهم، "ما يقبح سماعه، وتُستَشنَع الأحدوثة عنه"[39] ، مما يذكّر بأيام المكوس في الدولة الفاطمية. ونَقَلَ أحد المشاهد المؤلّمة لكيفية تفتيش الحجاج، حيث خرج شِرذمةٌ من أعوان الزكاة في أيديهم المسالّ الطوال، ثم صعدوا إلى المراكب استكشافاً لما فيها، فلم يتركوا شيئاً إلاّ وتخلّلوه بتلك المسالّ. ويستغرب كيف يكون ذلك في دولة السلطان العادل صلاح الدين، وهو يجزم أنّه لا يعرفه، "ولو عرفه لأمر بقطعه... وجاهد المتناول له، فإن جهاده من الواجبات، لما يصدر عنه من التعسف، وعسير الإرهاق، وسوء المعاملة"[40] .

وحملَ ابن جبير حملةً عنيفةً على عمال الزكاة والمكوس في ميناء عيذاب[41]، حيث يفرضون على كلّ حِمل طعام يحملونه ضريبةً معلومة، عدا الضرائب المكوسية[42]. غير أن هذا الرحالة يصعد نقده لعمال الزكاة والضرائب حين

يتحدث عن المكوس الّتي تُفرض على الحجاج والتجار في البلاد الحجازية، فهم "يعتقدون في الحاج ما لا يعتَقد في أهل الذمة، فقد صيروهم من أعظم غلاّتهم التي يستغلّونها: ينتهبونهم انتهاباً، ويسببون لاستجلاب ما بأيديهم أسباباً، فالحاج لا يزال معهم في غرامة ومؤونة"[43].

وانتقلت عدوى الجشع المادي إلى بعض الخطباء والوعاظ في المسجد النبوي الشريف، فقد شاهد ابن جبير فيه من أمور البدعة ما هاله، وأثار الأسى في نفسه، حيث قام الخطيب للخطبة، فلما فرغ من خطبته الأولى جلس جلسةً طويلة على غير المعهود، وانطلق غلمانه يشقّون الصفوف، ويتخطّون رقاب النّاس، ويجمعون له المال من الأعاجم والحاضرين، إلى أن كاد وقت الصلاة يفوت، "وهو قاعد ينتظر اشتفافَ صبابة الكُدية، وقد أراق عن وجهه ماء الحياء، فاجتمع له من ذلك السحت المؤلف كوم عظيم أمامه، فلما أرضاه قام، وأكمل خطبته وقام، وانصرف أهل التّحصيل باكين على الدين، يائسين من فلاح الدنيا، متحقّقين أشراط الساعة"[44].

وهذا الظلم في السياسة المالية جعل ابن جبير يدقّ ناقوس الخطر، ويطلق نفثةَ مصدور عندما تحدث عن أوضاع المزارعين في البلاد الّتي كانت تخضع لسيطرة الفرنجة في ديار الشّام، فقد خشي الفتنة في الدين عليهم، لأنّهم يرون أمثالهم في البلاد الإسلامية يعانون من جور العمال، في حين أن الفرنجة كفلوا لهم حقوقهم في ضياعهم، "وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين: أن يشتكي الصنفُ الإسلامي جور صنفه المالك له، ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك له من الإفرنج، ويأنس إلى عدله، فإلى الله المشتكى من هذه الحال"[45].

ثانيا- النّقد الاجتماعي

المعتقدات الشّعبية والبدع الدينية

أُشير سابقًا إلى تقوى ابن جبير وعمق تدينه؛ لذا فقد كان في رحلته شديد العارضة في نقد المعتقدات الشعبية والبدع الدينية الّتي تخالف الشريعة الإسلامية، ولا سيما تلك الّتي رآها في الديار الحجازية؛ فعندما زار مكّة المكرمة لاحظ بعض العوائد الدينية الفاسدة، من ذلك ما شاع لدى بعض النّاس عن الشقّ الموجود في (غار ثور)، فإن عوام النّاس يرومون الدخول منه تبركاً به، لأنّهم يعتقدون أن النبي-صلّى الله عليه وسلّم- دخل منه، ويزعمون أن الّذي لا يستطيع المرور منه، وينشب فيه ليس لِرِشدة، ويعلّق ابن جبير على ذلك ساخراً: "فبحسب المنْشَب فيه المتعذر ولوجه عليه ما يكون من هذا الظن الفاضح المخجل، زائداً إلى ما يكابده بدنه من اللز في ذلك المضيق، وإشرافه على المنية توجعاً، وانقطاع نَفَس، وبرح ألم"[46].

وكانت السنةُ الّتي زار فيها ابن جبير الحجاز سنةَ خير وبركة بإجماع أهلها؛ فقد اعتدل هواؤها، وفَتَرتْ حرارةُ قيظها، وكثرت نعمها، ورخصت أسعارها. وما زال النّاس يسلسلون أوصاف هذه السنة حتّى جنحوا إلى ما لا يصدقه عاقل، وهنا نجده يسخر من زعمهم أن ماء زمزم المبارك زاد عذوبة عما كان من قبل، وحتّى يفنّد هذا الزعم فقد شرب منه، ووجده "كاللبن عند خروجه من الضرع دفيئاً"[47].

ونَقل صاحب الرحلة مشهداً عجيباً رآه في البيت الحرام ليلة النصف من شعبان؛ فقد خرج النّاس واحتشدوا رجالاً ونساء في قبة زمزم، مكبرين مهلّلين قاطعين "قطعاً جهلياً أن ماء زمزم يفيض"[48] هذه الليلة، وإمعاناً في السخرية فإن ابن جبير يستقصي جوانب المشهد مستثمراً طاقة الفعل المضارع في رسم الحركة وحكاية الحال، ووصف ما يقوم به النّاس في أعمال لا يرضاها الدين، ولا يصدقها العقل، فـ"السقاة فوق التنّور يستبقون، ويفيضون على رؤوس النّاس الماء بالدلاء قذفاً؛ فمنهم من يصيبه في وجهه، ومنهم من يصيبه في رأسه، إلى غير ذلك...والنّاس مع ذلك يستزيدون ويبكون، والنّساء من جهة أخرى يساجلنهم بالبكاء، ويطارحنهم بالدعاء، والصبيان يضجون بالتكبير"[49]، مما أفسد صلاة المصلّين وطواف الطائفين. ويلتقط بعض العبارات الّتي يرددها هؤلاء الناس عن زيادة الماء سبعة أذرع، وادعاء بعضهم أنّه تحقّق من ذلك عن خبرة وحقيقة. وقد استفز هذا المشهد ابن جبير، وولّد في نفسه الرغبة في التأكّد من ذلك، فأدلى بعض أصحابه دلوه في البئر، وانتهى الحبل إلى حافّتها، وعقد عقداً يصح عنده القياس، وعندما تنادى النّاس في الصباح للزيارة، خرج أحدهم إلى البئر، وأدلى دلوه، فوجد القياس على حاله لم ينقص ولم يزد. ويعلّق ابن جبير على ذلك قائلاً: "فيا عجباً لهذا الاختراع الكاذب، نعوذ بالله من الفتنة!"[50].

وأخذ ابن جبير على أهل مكّة صومهم شهر رمضان سنة579هـ مع أن الرؤية لم تصح، لموافقة ذلك معتقد أمير مكّة ومذهب شيعته من العلويين، لأنّهم يرون صيام يوم الشك فرضاً[51] . وأنكر البدع المستحدثة في المسجد الحرام في شهر رمضان، من ذلك الضرب بالفرقعة ثلاثَ ضربات عند الفراغ من أذان المغرب، ومثلها عند الفراغ من أذان العشاء، وكذلك الضرب بها في صلاة التّراويح وفق ترتيب مخصوص، ويعلّق على ذلك قائلاً": "وهي لا محالةَ من جملة

البدع المستحدثة في هذا المسجد المعظّم، قدسه الله"[52].

وقدم في رحلته وصفاً تفصيليا للاحتفالات البديعة التي كانت تُقام في المسجد الحرام في العشر الأواخر من رمضان، حيث يختم القرآن الكريم في كلّ ليلة منها صبي من أبناء المياسير من أهل مكّة، ويبدو ابن جبير في هذا الوصف مندهشاً متعجباً مما رآه من الإمعان في الاحتفال، واحتشاد النّاس لمشاهدة هذه المناظر النيرة، بيد أنّه يستغرب أن يقوم هذا الصبي الذي ختم القرآن، أو "الإمام الطفل"[53] على حد تعبيره، ليصلّي التّراويح بالنّاس، والقيام خطيباً فيهم، ويسخر من الحاضرين الّذين تظاهروا بالتأثّر بهذه الخطبة، والتحرك لها، ليس تذكّراً وخشوعاً، وإنّما تشجيعاً لهذا الطفل الميسور، لأنّها خطبةٌ مصنوعة، "والتّذكِرةُ إذا خرجت من اللسان لم تَعد مسافةَ الآذان"[54].

وتستثير بعض هذه التجاوزات الدينية حفيظةَ ابن جبير فتبدو على عبارته الحدة في النّقد والانفعال الشديد، كما يبدو في حديثه عن ترقّب النّاس هلال ذي الحجة ليلة الخميس الموفّي للثلاثين من ذي القعدة سنة579هـ؛ فقد كان "للنّاس في ارتقابه أمر عجيب، وشأن من البهتان غريب، ونطقٌ من الزور كاد يعارضه من الجماد، فضلاً عن غيره، رد وتكذيب"[55]، حرصاً على أن تكون الوقفة بعرفة يوم الجمعة، ومما زاد إنكار ابن جبير أن النّاس اجتمعوا لترقّب الهلال وقد تراكمت السحب بالسماء مما يجعل الرؤية غير ممكنة، ومع ذلك، وبينما هم محتشدون "إذ كبر أحدهم، فكبر الجم الغفير لتكبيره، ووقفوا قياماً ينظرون ما لا يبصرون، ويشيرون إلى ما لا يتخيلون"[56] .

ولم يكن نقد ابن جبير مقصوراً على هذه الممارسات ذات الطابع الديني الاحتفالي، وإنّما تعداه إلى بعض أنماط السلوك الّتي تصدر عن بعض النّاس في البيت الحرام، ومن أبرز ذلك تزاحم الحجاج وتدافعهم ودخولهم البيت الحرام في أفواج على هيئة سلاسل يرتبط بعضها ببعض، ويرسم مشهداً مثيراً لاندفاع قبائل (السرو)[57] في دخولهم الحرم المكي وطوافهم وسعيهم، فإذا فُتح باب الحرم لهم اندفعوا "كأنّهم بعض ببعض مرتبطون، يتّصل منهم على هذه الصفة الثلاثون والأربعون، إلى أزيد من ذلك، والسلاسل منهم يتبع بعضهم بعضاً، وربما انفصمت بواحد منهم... فيقع الكلّ لوقوعه، فيشاهد النّاظر لذلك مرأى يؤدي إلى الضحك"[58] ، فإذا دخلوا البيت الحرام، وطافوا حول الكعبة، انحدروا وثباً على الرؤوس والأعناق، وتطارحوا عليها، وتعلّقوا بأستارها، ومزقوها من شدة انكبابهم عليها، لذا فإنّه لم يكن ثمة سبيل إلى الطواف أو استلام الحج الأسود مع وجودهم. أما صلاتهم فقد وصفها ابن جبير بأنّه "لم يذكر في مضحكات الأعراب أظرف منها، فهم يسجدون" دون ركوع، وينقرون بالسجود نقراً، ومنهم من يسجد السجدة الواحدة، ومنهم من يسجد الثنتين والثلاث والأربع... وربما تكلّموا في أثناء ذلك...إلى غير ذلك من الأحوال الغريبة"[59] .

ومن المشاهد الّتي أنكرها ابن جبير تزاحم النّساء عند دخولهن البيت الحرام في اليوم المخصص لهن، حيث تَسلْسلَ بعضهن ببعض، "وتشابكن حتّى تواقعن؛ فمن صائحة ومعولة، ومكبرة ومهلّلة، وظهر من تزاحمهن ما ظهر من السرو اليمنيين"[60]، بل إن النّساء ربما زاحمت الرجال في بعض المواقف، "فتنضج جلودهن طبخاً في مضيق المعتَرك!!"[61].

ومثلُ هذا التّزاحم والتّدافع كان من الحجاج الأعاجم الّذين وصلوا مع الأمير العراقي، حيث كان يثب بعضهم على رؤوس بعض، مما أدى إلى موت عدد كبير منهم[62].

وربما أدى هذا التّدافع والتّزاحم في أداء المناسك إلى وقوع المنازعات بين الحجاج، كما وقع في مِنى عند رمي الجمرات؛ فقد جرت بين بعض سودان مكّة وبعض الأتراك "جولة وهوشة وقعت فيها جراحات، وسلّت السيوف، وفُوقت القسي، ورميت الأسهم، وانتُهبت بعض أمتعة التجار"[63].

الأخلاقُ والعادات والتّقاليد

ومن المظاهر الّتي انتقدها ابن جبير وأنكرها في رحلته الأخلاقُ الجافية، وبعض العادات والتقاليد، ومظاهر السلوك اليومي؛ فقد حمل حملةً عنيفة على أهل (عيذاب)، واستخدم عبارات قاسية في وصف طباعهم وأخلاقهم وطرائق عيشهم؛ فقد ألفوا عيش البهائم، بل إنّهم على حد قوله: "أقرب إلى الوحش منهم إلى الإنس"[64]. ويعلّل ذلك بقسوة الطبيعة في هذه البلادة الّتي لا رطب فيها ولا يابس. ويضرب بعض الأمثلة على هذه الأخلاق الوحشية لهم؛ فهم لهم في الحجاج "حكم الطواغيت"[65]، ويعاملونهم معاملة قاسية في سبيل الحصول على الأموال منهم، حتّى لو عرضوهم للموت؛ إذ يحملونهم في قلب البحر في سفنٍ ملفّقة الإنشاء، ضعيفة البنية، تعود بهم كأنّها أقفاص الدجاج المملوءة، دون أن يبالوا بما سيصنع بهم البحر بعد ذلك، بل إنّهم يتّخذون هؤلاء الحجاج سخرياً، قائلين: "علينا بالألواح وعلى الحجاج بالأرواح"[66]، حتّى غدا هذا المثل سائراً بينهم.

ويرصد ابن جبير مظهراً آخر من مظاهر التوحش في أهل (عيذاب)؛ فهم رجالاً ونساء يتصرفون وهم عراة إلاّ خرقاً يسترون بها عوراتهم، وأكثرهم لا يستترون، ويستشهد

في سياق ذلك بمقطع من أغنية شعبية ذاعت على الألسنة في نقد سوء أخلاقهم، وقسوة بلادهم، مما ورد فيها: "ماء زعاقٌ وجو كلّه لهب"[67] ، لذا وصفَها بـ"البلدة الملعونة"[68]، ووصف أهلها بأنّهم "أضلّ من الأنعام سبيلاً، وأقلّ عقولاً... وبالجملة فهم أمة لا خلاقَ لهم، ولاجناح على لاعنهم"[69].

وعندما زار ابن جبير العراقَ حمل على قبيلة خفاجة الّتي ألحقت الخراب بالكوفة، "فهي لاتزال تضر بها"[70]. وعندما لابس أهلَ بغداد، وعاين أساليبهم في المعاملة، هجاهم هجاء لاذعاً، وأنكر عليهم تكبرهم، "فلا تكاد تلقى فيهم إلاّ من يتصنّع بالتواضع رياء، ويذهب بنفسه عجباً وكبرياء، ويزدرون الغرباء، ويظهرون الأنفة والإباء"[71].

ويأخذ ابن جبير على أهل بغداد بطرهم، وضعف الوازع الديني في نفوسهم، وتقصيرهم في إقامة أوامر الشّرع وأداء العبادات المفروضة، والتّطفيف في الكيل والميزان، حتّى إنّه ليجعلهم من بقايا مدين، قوم شعيب، عليه السلام[72].

كذلك حذّر ابن جبير في عبارة موجزة من فِتَن الهوى ببغداد، بسبب "الحسن الحريمي" الّذي ينشأ بين هوائها ومائها حتّى ذاع ذكره بين النّاس، بلّ ربما خشي على نفسه الفتنة، كما يستشفّ من قوله: "ففتن الهوى،إلاّ أن يعصم اللهُ، بها مخوفة" [73] .

وعندما وصل ابن جبير نصيبين حذّر من مخاطر الأكراد الّذين لا يفتأون يغيرون على هذه المدينة، وعلى القوافل المارة بها؛ فهم "آفة هذه الجهات من الموصل إلى نصيبين إلى مدينة دنيصير، ويقطعون السبيل، ويعيثون فساداً في الأرض"[74].

ويبدو من الرحلة أن ابن جبير لم يكن يرتاح لمظاهر البذخ والتّرف الّتي كان يشاهدها في بعض البلدان الإسلامية، فهو ينتقدها أينما يراها؛ فقد امتزجت في نفسه مشاعر الاستغراب والإنكار عندما صور خروج موكب الشريفة(جمانة) ، عمة الأمير مكثر في مكّة المكرمة لأداء "العمرة الرجبية"، فقد كانت أذيال ستر هودجها "تنسحب... على الأرض انسحاباً، وغيره من هوادج حرم الأمير، وحرم قواده...فكانت تلوح على ظهور الإبل كالقباب المضروبة، فيخيل للناظر إليها أنّها محِلّةٌ قد ضربت أبنيتها من كلّ لون..."[75].

وينتقد ابن جبير مظاهر البذخ هذه، حتّى عندما تصدر عن أناس كان قد أثنى عليهم في رحلته؛ فقد امتدح في غيرما موضع من الرحلة الخاتون بنت الأمير مسعود ملك الدروب والأرمن وما يلي بلاد الروم، والخاتون أم عزالدين صاحب الموصل، وزوج قطب الدين مودود بن زنكي، ونوه بأعمال البر الكثيرة الّتي قامتا بها، بيد أنّه عندما وصف موكبيهما، واحتشاد النّاس لاستقبالهما في موكبين منفصلين في الموصل، بعد رجوعهما من أداء فريضة الحج -مهد لوصف هذا الاحتفالي بعبارة ناقدة جاء فيها: "ومن أحفل المشاهد الدنياوية المريبة بروز شاهدناه يوم الأربعاء ثاني يوم وصولنا الموصل للخاتونين"[76]. وبعد أن استقصى تفاصيل هذا المشهد الزخرفي، كما نعته، علّق عليه بعبارة يستشعر فيها العظة والعبرة، قائلا: "فكان مشهداً أبهت الأبصار، وأحدث الاعتبار"[77] .

ويبدو أن مثل هذا "الملك النسائي"[78] ، على حد قوله، لم يكن يألفه في الأندلس، لذلك فإنّنا نجده يعبر عن نظرة غير راضية، إن لم تكن رافضة، لقيادة هاتين العسكر من بغداد إلى الموصل؛ فقد كانت لهما أجناد برسمهما، وكانت الطبول والبوقات تُضرب عند ركوبهما ونزولهما، بل إن ابن جبير شَعر بالحرج الشديد لأنّه، وهو في طريقه إلى ديار الشّام، كان ضمن القافلة الّتي تقودها "أميرتا هذا العسكر"، لذا فهو يختم وصفه للمشهد بعبارة دعائية تنطوي على نقد لاذع، فيقول: "والله لا يجعلنا تحت قول القائل: ضاع الرعيلُ ومن يقوده"[79] .

ولا يخفي ابن جبير نقده للأشخاص الّذين قد تربطه بهم علاقات حسنة، أو الّذين أُعجب بحسن سياستهم وإدارتهم، فكأن محاسنهم لا تخفي عنه عيوبهم؛ فهو شديد الإعجاب بحسن سياسة أمير الحج العراقي، غير أنّه يعبر عن نقده له مرتين: الأولى- عندما سخر من الخطيب ألّذي اصطحبه معه للحج، فبعد أن استمع ابن جبير لخطبته خرج بحكمٍ مؤداه أن "ظاهر حاله البلادة والبله، لأن خطبته أعربت عن ذلك، ولسانه لا يقيم الإعراب"[80]. والثانية- عندما تحدث عن انزعاجه وانزعاج النّاس من روعة نقر كوس هذا الأمير؛ فقد كانت الأفئدة ترتجف عند سماعها، "فربما كان النّائم منهم يهذي بنقر الكوس، فيقوم عجِلاً ذهِلاٍ، ثم يتحقّق أنّها من أضغاث أحلامه، فيعود إلى منامه"[81].

وقد أُعجب ابن جبير بدمشق، وصور كثيراً من مآثر أهلها ومفاخرهم، إلاّ أنّه لا يتوانى عن نقد بعض مظاهر السلوك الّتي يرى أنّها غير سليمة، أو الّتي لاتتّفق وذوقه الأندلسي؛ فقد أخذ عليهم إكثارهم من الهزل والمزاح، "فالجد عندهم عنقاء مغرب"[82] ، وأخذ عليهم طريقتهم في المشي والمصافحة، فهم يمشون وأيديهم إلى الخلف قابضين بالواحدة على الأخرى، ويركعون للسلام على تلك الحالة، ويسخر من هذه الطّريقة ويشبهها بهيئة الأسرى في الهوان والاستكانة، "كأنّهم قد سيموا تعنيفاً، وأوثقوا تكتيفاً"[83]، ومع ذلك فإن

القوم كانوا يعتقدون أن هذه الهيئة تريحهم من الإعياء، وتجدد نشاطهم، وأنّها تدلّ على التّميز الاجتماعي وعلو المكانة، لذا اقترنت عندهم بإسبال الإزار وما يوحي به من تعالٍ وترفّع، فـ "المحتشم منهم من يسحب أذياله على الأرض شبراً أو يضع خلفه اليد الواحدة على الأخرى، قد اتّخذوا هذه المِشية بينهم سنناً، وكلّ منهم قد زين له سوء عمله فرآه حسناً"[84].

وأخذ عليهم أساليبهم في مخاطبة بعضهم بعضاً، والعبارات الّتي يستخدمونها في ذلك، مثل: يا مولاي، يا سيدي، جاء المملوك أو الخادم برسم الخدمة... ويستغرب هذا الإسراف في الخطاب، ويجعله مؤشراً إلى افتقادهم اللّياقة الاجتماعية في هذا المجال، وعدم تقدير الناس حسب منازلهم، فقد "تساوت الأذناب عندهم والرؤوس، ولم يميز لديهم الرئيس والمرؤوس"[85].

ويستنكر ابن جبير طريقتهم في السلام، وهي إيماء بالركوع أو السجود" فترى الأعناق تتلاعب بين رفع وخفض وبسط وقبض... فواحد ينحطّ وآخر يقوم، وعمائمهم تهوي بينهم هويا "[86] ، ويعجب لهذا (الانعكاف الركوعي) في السلام وما فيه من مبالغة مهينة وابتذال للنّفس تأنف النّفوس الأبية منه، واستدعى هذا في ذاكرته صورة قينات النّساء، واستعراض الرقيق.

ولا يملك ابن جبير إلاّ أن يسخر من بعض عادات أهل دمشق في مجالس عزائهم، وهنا يشير إلى ما سماه (نقباء الجنائز)، ومهمتهم أن يرفعوا" أصواتهم بالنّداء لكلّ واصل للعزاء من محتشمي البلد وأعيانهم"، ويلقّبوهم بألقاب الشّرف والتّعظيم الّتي وضعوها مضافة إلى الدين. ويستغرب ابن جبير هذه المبالغة في الألقاب وما يتبعها من نفاق اجتماعي، ولا سيما إذا كان الرجل فقيهاً أو قاضياً، فإن الأذن تُصدم بما تسمعه من "صدرالدين أو شمسه أو بدره أو نجمه أو زينه أو بهائه إلى ما لا غاية له من هذه الألفاظ الموضوعة، ولا سيما في الفقهاء، بما شئت من سيد العلماء، وجمال الأئمة، وحجة الإسلام، وفخر الشريعة إلى ما لا نهاية له من هذه الألفاظ المحالية"[87] ، وبعد ذلك يصعد كلّ واحدٍ منهم إلى المكان المخصص للتّعزية، ويرسم ابن جبير صورة تشي بالكِبر والإحساس بتضخّم الذّات لدى هؤلاء المعزين وهم يسيرون إلى ذلك المكان، حيث يصعد الواحد منهم وقد ثنى عِطفه وسحب أذياله، ومشى مِشية لا تليق بموقف عزاء.

الخاتمــة

درست في الصفحات السابقة النّزعة النّقدية في رحلة ابن جبير، وتبين منها أن ابن جبير كان شديد الحساسية لمظاهر السلوك الاجتماعي في البلدان الّتي زارها، وكان يعارض هذا السلوك على تعاليم الدين الحنيف، أو على ذوقه الأندلسي وما ألفه في مغرب العالم الإسلامي. وقد تعددت المظاهر الّتي نقدها فشملت الفوضى المذهبية، والتفكّك السياسي، وفساد الإدارة المالية، والمعتقدات الشعبية الخاطئة، والبدع الدينية، وبعض العادات والتقاليد، ومظاهر السلوك اليومي. واتّخذ هذا النقد صوراً شتّى من التعبير، تمثّلت في إظهار مشاعر الاستغراب الدهشة، والتعبير عن انفعالات السخط والغضب، والهجاء والذم، وقد يخالط ذلك قدر من التهكّم والسخرية. وتشفّ هذه الانتقادات عامة عن شخصية ذات طبيعة معتدلة تكره التطرف في الظواهر الاجتماعية، فكما انتقد ابن جبير الفظاظة والأخلاق الجافية، فقد انتقد المبالغة في التّرف والبذخ، والانسياق وراء الهزل والمزاح، وهذا يستدعي البحث في شخصية ابن جبير من رحلته، على اعتبار أن الرحلة تمثّل في بعض جوانبها سيرة ذاتية لكاتبها. والله من وراء القصد.

الهوامش

(1) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، 2: 230، وانظر: المراكشي، الذيل والتكملة، 5: 599-600.

(2) المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، 2: 386.

(3) من هذه الدراسات:حسين مؤنس: تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس(مدريد، 1967) 432؛ شوقي ضيف: الرحلات (القاهرة ط4 1987) 70؛ نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات عند العرب (بيروت 1962) 167-169؛ نقولا زيادة: رواد الشّرق العربي في العصور الوسطى (بيروت 1943) 67-69؛ عبد القدوس الأنصاري: مع ابن جبير في رحلته (القاهرة 1977)؛ زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى (بيروت 1981) 70-88؛ عثمان موافي: لون من أدب الرحلات: دراسة نقدية (الإسكندرية 1973) 15؛ حسني محمود: أدب الرحلات عند العرب، رحلات أمين الريحاني نموذجاً (عمان1995) 16-23؛ حسين محمد فهيم: أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة (الكويت، العدد138، حزيران1989) 144-146، 231؛ إبراهيم عوض: رحلة ابن جبير، دراسة في الأسلوب (القاهرة1992) 3؛ كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة

صلاح الدين عثمان هاشم (القاهرة1965) 1: 300؛ إبراهيم خليل: أوراق في اللغة والنّقد الأدبي (عمان1993) 33-34؛ إحسان عباس: دراسة في الرحالة ابن جبير الأندلسي البلنسي الكناني وآثاره الشعرية والنثرية (بيروت2001) 23؛ عبد الواحد ذنون طه:الرحلات المتبادلة بين المغرب الإسلامي والمشرق (بيروت2004) 126؛ فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي (القاهرة2002) 384؛ نوال الشويكة: أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتّى نهاية القرن التاسع (عمان2008) 62؛ وجيه عضاضه: الرحلات عند العرب في العصور الوسطى، مجلّة تاريخ العرب والعالم، السنة الأولى، عدد12، تشرين الأول (بيروت1979) 32-33؛ فلاح شاكر أسود: ابن جبير في رحلته، قراءة في الجوانب الجغرافية للرحلة،مجلّة المورد، عدد4، مجلد18 (بغداد 1989) 72؛ علي حسن مال الله: العراق في رحلة ابن جبير خاصة ورحلات العرب الأخرى، المرجع السابق 59.

(4) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، 333.

(5) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ط2) 13(مقدمة المحقّق)، وسيشار إليها فيما بعد باسم المؤلف ابن جبير.

(6) رحلة ابن جبير: 13.

(7) رحلة ابن جبير: 28.

(8) رحلة ابن جبير: 87.

(9) رحلة ابن جبير: 302.

(10) رحلة ابن جبير: 324.

(11) رحلة ابن جبير:412.

(12) رحلة ابن جبير: 49، 60، 142، 383.

(13) رحلة ابن جبير: 31.

(14) رحلة ابن جبير: 31.

(15) رحلة ابن جبير: 39.

(16) رحلة ابن جبير:31.

(17) رحلة ابن جبير: 87.

(18) رحلة ابن جبير: 87.

(19) رحلة ابن جبير: 88.

(20) رحلة ابن جبير: 88.

(21) رحلة ابن جبير: 115، وقد قال ابن جبير قصيدة صور فيها البدع المذهبية التي ظهرت في الديار الحجازية، وحثّ فيها صلاح الدين على إزالتها. انظر: المراكشي: الذّيل والتكملة 5: 617.

(22) ابن جبير: 246، وانظر: حرب، اليمن والحجاز في العصر الأيوبي، 239.

(23) رحلة ابن جبير: 201.

(24) رحلة ابن جبير: 89.

(25) رحلة ابن جبير: 86.

(26) رحلة ابن جبير: 86.

(27) رحلة ابن جبير: 86.

(28) رحلة ابن جبير: 148.

(29) رحلة ابن جبير: 199.

(30) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 11: 432.

(31) رحلة ابن جبير: 170.

(32) رحلة ابن جبير: 174.

(33) رحلة ابن جبير: 204.

(34) رحلة ابن جبير: 204.

(35) لم يكتف ابن جبير بالتعريض بعمال الدواوين في الرحلة، بل قال في ذلك قصيدة حثّ فيها صلاحالدين على وضع حد لتعدياتهم. انظر: المراكشي، الذيل والتكملة 5: 598. وقد تحدث الشعراء المصريون في القرنين السادس والسابع الهجريين عن مفاسد هؤلاء العمال، وكتبوا القصائد المطولة في نقدهم. انظر،مثلاً: البوصيري: ديوانه، تحقيق تحقيق محمد سيد كيلاني (القاهرة، ط2، 1973) 271.

(36) رحلة ابن جبير: 29.

(37) رحلة ابن جبير: 30.

(38) رحلة ابن جبير: 30.

(39) رحلة ابن جبير: 65.

(40) رحلة ابن جبير:65.

(41) عيذاب: ميناء جنوب مصرعلى شاطئ البحر الأحمر، قرب الحدود السودانية اليوم، كان يبحر منه الحجاج المصريون والقادمون من مغرب العالم الإسلامي إلى جدة. وقد ذكره معظم الرحالة القادمون من المغرب والأندلس. الحموي، معجم البلدان (عيذاب).

(42) رحلة ابن جبير: 74.

(43) رحلة ابن جبير: 85.

(44) رحلة ابن جبير: 247.

(45) رحلة ابن جبير: 383.

(46) رحلة ابن جبير: 35.

(47) رحلة ابن جبير: 144.

(48) رحلة ابن جبير: 163.

(49) رحلة ابن جبير: 163.

(50) رحلة ابن جبير: 164.

(51) رحلة ابن جبير: 168.

(52) رحلة ابن جبير: 169.

(53) رحلة ابن جبير: 176.

(54) رحلة ابن جبير: 177، وانظر 182.

(55) رحلة ابن جبير: 200.

(56) رحلة ابن جبير: 201.

(57) السرو: من القبائل اليمنية، وعلى الرغم من نقد ابن جبير لبعض تصرفاتهم، فإنّه أثنى على فصاحتهم وصدق نيتهم،

وحسن اعتقادهم، ورقّة دعائهم.

(58) رحلة ابن جبير: 156.
(59) رحلة ابن جبير: 156.
(60) رحلة ابن جبير: 160.
(61) رحلة ابن جبير: 160.
(62) رحلة ابن جبير: 217.
(63) رحلة ابن جبير: 215.
(64) رحلة ابن جبير: 75.
(65) رحلة ابن جبير: 77.
(66) رحلة ابن جبير: 77.
(67) رحلة ابن جبير: 79.
(68) رحلة ابن جبير: 79.
(69) رحلة ابن جبير: 78.
(70) رحلة ابن جبير: 259.
(71) رحلة ابن جبير: 268.
(72) رحلة ابن جبير:269.
(73) رحلة ابن جبير: 268.
(74) رحلة ابن جبير: 299.
(75) رحلة ابن جبير: 151 وللاستزادة، انظر 174.
(76) رحلة ابن جبير: 294.
(77) رحلة ابن جبير: 294.
(78) رحلة ابن جبير: 285.
(79) رحلة ابن جبير: 285.
(80) رحلة ابن جبير: 215.
(81) رحلة ابن جبير: 263.
(82) رحلة ابن جبير: 374.
(83) رحلة ابن جبير: 375.
(84) رحلة ابن جبير: 375.
(85) رحلة ابن جبير: 374.
(86) رحلة ابن جبير: 375.
(87) رحلة ابن جبير: 374.

المصادر والمراجع

ابن الأثير، عز الدين، الكامل في التاريخ، بيروت، 1979.

أسود، فلاح شاكر، ابن جبير في رحلته، قراءة في الجوانب الجغرافية للرحلة، مجلّة المورد، عدد4، مجلد18، بغداد، 1989.

البوصيري، ديوانه، تحقيق محمد سيد كيلاني، القاهرة، ط2، 1973.

ابن جبير، أحمد بن جبير بن سعيد، رحلة ابن جبير، تحقيق حسين نصار، 1992، القاهرة، ط2.

حرب، جميل، اليمن والحجاز في العصر الأيوبي، تهامة، 1405هـ/1985م.

حسن، زكي محمد، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، بيروت، 1981.

الحموي، ياقوت، معجم البلدان، بيروت.

ابن الخطيب، لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبدالله عنان، 1974، القاهرة.

خليل، إبراهيم، 1993، أوراق في اللغة والنّقد الأدبي، عمان.

زيادة، نقولا، 1962، الجغرافية والرحلات عند العرب، بيروت.

الشوبكة، نوال، 2008، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتّى نهاية القرن التاسع، عمان، وجيه عضاضه، 1979، الرحلات عند العرب في العصور الوسطى، مجلّة تاريخ العرب والعالم، السنة الأولى، عدد12، تشرين الأول، بيروت.

ضيف، شوقي، 1987، الرحلات، القاهرة، ط4.

عبد القدوس الأنصاري، 1977، مع ابن جبير في رحلته، القاهرة.

عبد الواحد ذنون طه، 2004، الرحلات المتبادلة بين المغرب الإسلامي والمشرق، بيروت.

عوض، إبراهيم، 1992، رحلة ابن جبير، دراسة في الأسلوب، القاهرة.

عباس، إحسان، 2001، دراسة في الرحالة ابن جبير الأندلسي البلنسي الكناني وآثاره الشعرية والنثرية، بيروت.

فهيم، حسين محمد، 1989، أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة الكويت، العدد138.

قنديل، فؤاد، 2002، أدب الرحلة في التراث العربي، القاهرة.

كراتشكوفسكي، 1965، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم القاهرة.

مال الله، علي حسن، 1989، العراق في رحلة ابن جبير خاصة ورحلات العرب الأخرى، مجلّة المورد، عدد4، مجلد18 بغداد.

المراكشي، عبد الملك، الذيل والتكملة، تحقيق إحسان عباس (د.ت)، بيروت.

المقري، شهاب الدين أحمد، 1968، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت.

موافي، عثمان، 1973، لون من أدب الرحلات: دراسة نقدية الإسكندرية.

محمود، حسني، 1995، أدب الرحلات عند العرب، رحلات أمين الريحاني نموذجاً، عمان.

مؤنس، حسين، 1967، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، مدريد.

The Critical Tendency at Ibn Jubair's Journey

Mohammad N. Al-Amaira and Shafeeq M. Al-Roqoub*

ABSTRACT

Ibn Jubair has depicted in his journey several pictures of the social architecture in the countries he visited. Some alien scenes attracted his attention, and so he criticized them, especially those contradict the Islamic religion, or those which he has not been familiar with in the Islamic Western World. This study aims at investigating the critical tendency in his journey, the extent of its relationship with Ibn Jubair himself, and the forms that it represented. This study will focus on two frames; the political and administrational critique; and the social critique.

Keywords: Ibn Jubair, The Critical Tendency, Journey.

* Department of History; Department of Arabic Language and Literature, Muta University, Al-Karak, Jordan
Received on 24/3/2009 and Accepted for Publication on 11/1/2010.